العرب
الجمعة 2019/12/06
السنة 42 العدد 11550

العراق ولبنان

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

هناك أوجه شبه كثيرة بين العراق ولبنان. لكنّ هناك أيضا نقاط اختلاف كثيرة بين البلدين، أقلّه من ناحية المساحة والثروات الطبيعية والموقع الجغرافي والتركيبة السكانية الخاصة بكل منهما. على سبيل المثال وليس الحصر، لا وجود لقوميات مختلفة في لبنان حيث المسيحيون والمسلمون عرب، باستثناءات قليلة، في حين توجد في العراق أقلية كردية ذات وضع خاص. أقامت هذه الأقلّية سلطة خاصة بها في إقليم كردستان وسعت قبل سنوات قليلة إلى إقامة دولة مستقلّة، لكنّها فشلت في ذلك. كذلك، هناك في العراق أقليات أخرى مثل التركمان تجعل من العراق بلدا متعدّد القومية، إضافة إلى التعدّد في المذاهب والأديان...

هذا غيض من فيض نقاط الاختلاف بين بلدين، أحدهما يمتلك ثروة نفطية كبيرة، فيما الآخر معدوم من هذه الثروات. تسعى إيران إلى السيطرة على البلدين مستفيدة من استثمارها في إثارة الغرائز المذهبية، وفي إنشاء ميليشيات مذهبية استطاعت إقامة مراكز نفوذ لها فيهما.

على الرغم من كلّ نقاط الاختلاف، كان العراق دائما قريبا من لبنان، وكان لبنان قريبا من العراق. هناك عدد لا بأس به من اللبنانيين جمع ثروات من العمل في العراق ومع العراق. كان ميناء بيروت المكان الذي تنزل فيه البضائع المتوجّهة إلى العراق. عندما نهبت ميليشيا تابعة لأحد الأحزاب المسيحية في العامين 1975 و1976مستودعات الحوض الرابع في الميناء، شملت عملية النهب بضائع وآليات، تقدر قيمتها بعشرات ملايين الدولارات، كانت في طريقها برّا إلى العراق عبر الطريق البرّي الذي يمرّ بالأراضي السورية. لم يفهم الذين نهبوا الحوض الرابع معنى إلغاء دور ميناء بيروت الذي كان بين الموانئ المتوسطية الأكثر نشاطا، إذ كان ميناء أساسيا بالنسبة إلى العراق ودول أخرى، خصوصا بعد زوال دور ميناء حيفا إثر قيام إسرائيل في العام 1948.

كلّ ما حصل في السنوات الماضية هو تعزيز الوجود الإيراني في بغداد وبيروت، إضافة إلى دمشق. صار عُرفا أن تختار إيران من هو رئيس الوزراء في العراق، كما صار رئيس الجمهورية في لبنان هو من يرشّحه «حزب الله» لهذا الموقع

لم تنزل القوات الأميركية في لبنان في العام 1958 إلا بعد الانقلاب العسكري ذي الطابع الدموي في العراق. سمح نزول القوات الأميركية بحصول تسوية في لبنان جاءت بفؤاد شهاب، قائد الجيش، رئيسا للجمهورية خلفا لكميل شمعون الذي سعى إلى ربط لبنان بحلف بغداد. كانت التسوية وقتذاك بين الإدارة الأميركية وجمال عبدالناصر...

كان الانقلاب الذي أطاح بالعهد الملكي مؤشّرا إلى نهاية العراق بمجتمعه الغنيّ بتنوّعه وانتقاله إلى مرحلة جديدة. كان التنوّع مصدر غنى للعراق إلى أن جاء الحكم العسكري، ثم البعث بكل ما يحمله من تخلّف وفكر لا علاقة له سوى بشعارات براقة تستخدم في تغطية نظام دكتاتوري بكلّ معنى الكلمة. انتهى بتفرّد صدّام حسين بالسلطة ابتداء من العام 1979. استتبع ذلك سياسات غير مدروسة ومغامرات غير محسوبة بدءا بالحرب الطويلة مع إيران وانتهاء باحتلال الكويت.

لم يحلّ التغيير الكبير في العراق دون بقاء العلاقة اللبنانية – العراقية. بقي العراق مهتمّا بلبنان في كلّ وقت. كانت له منظمة فلسطينية سميّت "جبهة التحرير العربية" تعمل انطلاقا من لبنان. كان هناك فرع للبعث العراقي في لبنان. كذلك، كانت هناك أحزاب يسارية عدّة تتلقى أموالا وأسلحة من العراق. إلى ذلك، تحوّل لبنان في مرحلة لاحقة إلى ساحة من ساحات الحرب العراقية – الإيرانية. كان أحد فصول تلك الحرب، التي شملت تصفية البعثيين الشيعة الموالين للبعث العراقي، نسف السفارة العراقية في بيروت عن بكرة أبيها.

أدّى تفجير السفارة في منطقة الرملة البيضاء يوم الخامس عشر من كانون الأوّل – ديسمبر 1981 إلى سقوط عشرات الضحايا، بينهم الطاقم الدبلوماسي والموظفون اللبنانيون. تبيّن لاحقا أن حزب الدعوة العراقي الموالي لإيران وراء تلك العملية التي لم يكن النظام السوري بعيدا عنها.

لم ييأس العراق من لبنان على الرغم من تفجير سفارته التي انتقلت في بداية 1982 إلى المنطقة الشرقية (المسيحية). بدأ العراق وقتذاك ينسج علاقات مع الأحزاب المسيحية توّجت بإرساله دبابات إلى قائد الجيش ميشال عون (رئيس الجمهورية حاليا) وإلى "القوات اللبنانية" في العام 1989. كان ميشال عون وقتذاك في قصر بعبدا بصفة كونه رئيسا موقتا لحكومة مهمتها انتخاب رئيس جديد للجمهورية خلفا للرئيس أمين الجميّل الذي انتهت ولايته في الثالث والعشرين من أيلول – سبتمبر 1988. لم تستخدم الدبابات كما كان مطلوبا، أي في مواجهة الاحتلال السوري، بل استخدمت في الحرب بين ألوية الجيش الموالية لميشال عون و"القوات اللبنانية" التي كانت لا تزال وقتذاك مجرّد ميليشيا من ميليشيات الحرب.

انكفأ العراق عن لبنان بعد العام 1990 إثر انشغاله بموضوع الكويت. وبعد الثالث عشر من تشرين الأوّل – أكتوبر 1991 عندما دخل الجيش السوري قصر بعبدا ومقر وزارة الدفاع في اليرزة، بدأ نظام الوصاية السورية. انتهى نظام الوصاية في السادس والعشرين من نيسان – أبريل 2005 بخروج القوات السورية من لبنان على دمّ رفيق الحريري.

يصعب تحليل الدور الذي لعبه العراق في لبنان بين 2005 و2019، باستثناء أنّه يمكن القول إن العراق الذي سلّمته الولايات المتحدة على صحن من فضّة إلى إيران في العام 2003، بات جزءا من الهلال الفارسي الذي يبدأ في طهران وينتهي في بيروت. كلّ ما حصل في السنوات القليلة الماضية هو تعزيز الوجود الإيراني في بغداد وبيروت، إضافة إلى دمشق طبعا. صار عُرفا أن تختار إيران من هو رئيس الوزراء في العراق، كما صار رئيس الجمهورية في لبنان هو من يرشحه "حزب الله" لهذا الموقع.

في ظلّ التلازم بين الثورتين اللبنانية والعراقية، يتغيّر العراق ويتغيّر لبنان في الوقت ذاته. هناك أحداث استثنائية يشهدها البلدان. لا تزال هذه الأحداث ذات الطابع الاستثنائي في بدايتها. لكن الأكيد أنّه سيكون لها تأثير على صعيدين. الأول مستقبل لبنان والعراق، والآخر مستقبل إيران. هل ينهي اللبنانيون والعراقيون الهلال الفارسي؟ سيتوقف الكثير على قدرة إيران، بالمشاركة مع "حزب الله"، على إبقاء العراق ورقة إيرانية. ما ينطبق على العراق، حيث سيتقرر مستقبل النظام الإيراني، ينطبق أيضا على لبنان حيث محاولة فاضحة لفرض حكومة جديدة يتمثل فيها "حزب الله" مع ما سيجرّه ذلك من ويلات على البلد.

قمة «الناتو» ولعبة أردوغان

عدلي صادق
كاتب وسياسي فلسطيني

ما إن كادت قمة "الناتو" في الذكرى السبعين لتأسيسه أن تبدأ؛ حتى وجد الرئيس الأميركي دونالد ترامب نفسه في موضع الدفاع عن نفسه، بينما تسيطر على ذهنه، فكرة دفاع آخر عن نفسه في الكونغرس، بعد أن صدر في واشنطن التقرير الخاص بعملية عزل ترامب، بسبب علاقته بالقيادة الروسية وسوء استخدامه للسلطة بهذا الخصوص. فربما استشعر الرئيس الأميركي أن الحلقة تضيق عليه من الداخل والخارج عندما انفتحت الثغرة الأولى لكاميرات التلفزة ولواقط الصوت، في قصر باكنغهام الذي جرى فيه اجتماع بروتوكولي للقادة المشاركين، فساعدت على رصد ما يجري في قاعة الاجتماعات المغلقة دونها. فالاجتماعات نفسها تجري في منتجع لندني للعبة الغولف. وفي الثواني التي اقتنصتها الكاميرات، كان أربعة من القادة الأوروبيين يسخرون من رئيس الولايات المتحدة، فيما بدا أنها سخرية موصولة بمواقفهم من سياسات الرجل وخياراته وطبائعه، ومن بينها الإفاضة في الكلام على عواهنه.

لم يكن خافياً على وسائل الإعلام والمراقبين والمحللين، أن قمة "الناتو" ستكون حادة وعصيبة، بحكم تعدّد القضايا الخلافية، ومن أهمها التهديدات الإستراتيجية التي تتحسسها الدول المشاركة، والخلافات حول الإنفاق، وكذلك حول خيارات تركيا ومواقفها، لاسيما خياري التسلح الإستراتيجي من روسيا، وتوغلها في سوريا بخلاف ما يرغب حلفاؤها. فهي إحدى دول هذا التحالف العسكري الذي يضم 29 بلدا.

خلافات الأوروبيين مع إدارة ترامب، تصاعدت إلى ذرى غير مسبوقة في تاريخ الحلف الذي تأسس في العام 1949. فبعد سبعة عقود من التأسيس، أصبحت أميركا، الدولة الأساس في تشكيل الحلف، ترى بلسان رئيسها أن هذا الحلف لم يعد ذا جدوى، وأن دماغه الإستراتيجي شبع موتاً. وفي هذه الأجواء، تصاعد الخلاف الأميركي – الفرنسي، الذي دلّت عليه تصريحات الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون، وتغريدات دونالد ترامب على تويتر. الأول يقول "إنه عبء نتقاسمه، ولا يمكننا أن ندفع الأموال ونتكلّف أثمان الدفاع عن بلداننا وجنودنا، دون أن نكون واضحين بخصوص أساسيات ما يجب أن يكون عليه الحلف". أما الثاني فقد ظل يراوح في مربع الاستهانة بالحلف والسخرية منه، حتى صدمته سخرية قادة دول رئيسة في العالم، في الشريط الذي بثته وكالة CBC لحديث شارك فيه الرئيس الفرنسي ماكرون، ورئيسي الوزراء البريطاني والكندي، بوريس جونسون وجوستين ترودو.

لقد بدت اللقطة القصيرة، نوعاً من السخرية المريرة في خضم توترات عميقة، تتهدد القمة بالانهيار. وللمرة الأولى تنعكس في القمة حقيقة عدم التجانس بين دول الحلف وتركيا، على الرغم من تمسك أنقرة بالامتيازات التي تتحصل عليها من العضوية في "الناتو". غير أن الأوروبيين يشعرون اليوم، بأن عضوين في الحلف يمارسان سياسات ابتزازية، تصدرت فرنسا مواجهتها بصراحة حادة، فنشأ السجال بينها وبين الإدارتين في تركيا والولايات المتحدة. فالفرنسيون هم أقرب الأوروبيين إلى الأكراد، ويحاول الرئيس التركي رجب طيب أردوغان مقايضة الأوروبيين شيئاً بشيء. هو يمتنع عن استخدام الفيتو ضد مشروع قرار يحمل خطة أمنية أوروبية، لحماية دول البلطيق وبولندا مما يسمّونه الخطر الروسي، مقابل أن يتبنّى سائر أعضاء "الناتو" قراراً يعتبر "وحدات حماية الشعب" الكردية في سوريا، منظمة إرهابية. والأوروبيون لا يرون هذه المنظمة مثلما يراها أردوغان. فهي حليفة لهم في محاربة الإرهاب الداعشي النافر والمؤكد.

وكان لهذه المقايضة تداعياتها، إذ علا صوت السجال بين باريس وأنقرة، وتبادل قادة البلدين الاتهامات، عندما انتقد الرئيس الفرنسي ماكرون العملية العسكرية التركية في شمال شرق سوريا، ورد عليه وزير الخارجية التركي بأن تصريحاته تشير إلى دعم فرنسا للإرهاب. ثم انتقد ماكرون وفنّد خيار أردوغان، شراء تركيا منظومة صواريخ روسية من طراز أس– 400، قائلاً إن دولاً أوروبية عرضت عليه شراء منظومات دفاع جوي، بديلاً عن منظومات باتريوت الأميركية التي رفضت واشنطن بيعها له. واستقر أردوغان في موضوع التسلّح الإستراتيجي على خيار مخالف لما يريده أعضاء "الناتو"، علماً بأن منظومات الدفاع الجوي عالية التطور، لا تعكس أي واقع عسكري يتهدد تركيا من أي طرف في إقليمها وجوارها. فقد بدا أردوغان كمن يسابق نفسه لبناء إمبراطورية مدججة بالسلاح الذي يخصم من مقدرات الشعب التركي، دون أن تلوح في الأفق، أي صراعات ستكون تركيا طرفاً فيها.

ولعل من بين مفارقات قمة "الناتو" أن الروس حاضرون بقوة في شواغل معظم الأوروبيين، وأن فرنسا التي دخلت في سجال مع نظام أردوغان، ظلت شريكته في الدعوة إلى إخراج روسيا من دائرة خصوم الناتو. بل إن الروس نجحوا في سحب أردوغان بالتدريج من موضع العداء الشديد للنظام السوري، ومن المتوقّع أن يتمكنوا من تطوير هذه الوجهة، والاستفادة من انتهازية أردوغان، وصولاً إلى تحالف أردوغان مع بشار الأسد. ولن يكون مثل هذا التحول، على ما فيه من الإدهاش، أكبر من صرف أردوغان النظر، عن طائرة أف– 35 الأميركية التي يتمناها وامتنعت عليه، والزهو بالسوخوي الروسية المتطورة والمتاحة. فهو يستعيض عن تاجر سلاح بتاجر سلاح آخر، بأكلاف باهظة، دون أن يعرف التاجران، أيّ حرب يريدها وفي أي وجهة!

أردوغان اختار الانغلاق على أوهامه وتمسك بالحلم القومي، وظن أن السلاح الروسي أو الأميركي يمكن أن يعوضه عن السياسة، وظلت خياراته الفاشلة تتناسل، حتى أوصل بلاده إلى حال الذراع التي نذرت نفسها لخدمة من يمده بالسلاح

واللافت أن الرئيس الروسي فلاديمير بوتين، يتابع مجريات اللعبة برضا وسعادة، دون أن يخسر شيئاً. فالخلافات الحادة بين أعضاء "الناتو" غيوم سيكون خراجها له، بينما ترامب يتخبّط كالعادة. الأول يستمر في محاولته إحباط الحلف أو تفكيكه، بينما الثاني يستخدم أردوغان للضغط على الأوروبيين الذين يتمسكون به. يريدهم أن يقرروا أن المنظمة الكردية إرهابية، دون أن يرى أي بلد في العالم أنها إرهابية، ما خلا النظامين التركي والسوري، بل إن نظام دمشق يرى ما يراه نظام أنقرة، لأسباب ظرفية يمكن لموسكو أن تحتويها في حال انتهاء منافعها في نظر بوتين. فالأخير مستفيد طالما أن أردوغان يتبنّى موقفاً في الحلف، لا مصلحة له ولا لبلاده فيه. فليس شيئاً يؤذي تركيا من خطة أوروبية لحماية البلقان من خطر روسي محتمل، أو لحمايته من إمكانية تعرّضه للخطر. وهذا الذي يجعل الفرنسيين يرون في عضوية تركيا لغماً روسياً داخل الحلف. وفي السنوات أو الشهور الأخيرة، دخل أردوغان في عملية تصفية للسياسة التركية التي صاغها في أواخر التسعينات وزير خارجيته أحمد داوود أوغلو، وقوامها تصفير المشكلات مع الجوار، وإنهاء مشكلة الصراع مع الأكراد من خلال دفع حزب العدالة والتنمية في اتجاه حل سلمي لها. وبالفعل جرت مفاوضات بين الطرفين واتخذت خطوات حُسن نوايا، لكن أردوغان اختار الانغلاق على أوهامه، وتمسك بالحلم القومي، وظن أن السلاح الروسي أو الأميركي يمكن أن يعوّضه عن السياسة، وظلت خياراته الفاشلة تتناسل، حتى أوصل نفسه وبلاده إلى حال الذراع التي نذرت نفسها لخدمة من يمده بالسلاح.